أبـو إدريـس الخَـوْلانِي
التابعـي عالـم أهـل الشـام

اقتضت النواميس الإلهية في حياة البشرية أن يقدم السابق للاحق ، وأن يستفيد المتأخر من المتقدم ، وأن تنتقل المعارف والعلوم ، والمدنية والحضارة من جيل إلى آخر ، ومن أمة إلى أمة ، ومن منطقة إلى ثانية ، وأن يتفضل الله تعالى على جماعة أو فئة أو أفراد بالمواهب الكثيرة ليكونوا قادة وأئمة ، وقدوة وأسوة ، وينعم بفضلهم الآخرون.

وتحقق هذا الناموس في الصحابة الذين نقلوا الشريعة الغراء عن النبي ﷺ ، بعد أن وضعها في أعناقهم في حجة الوداع ، وأشهدهم أنه بلَّغ الرسالة وأدَّىٰ الأمانة ، وأشهد الله تعالى على إقرارهم ، وأمرهم بالتبليغ ، وحمل الصحابة هذه الأمانة بحماسة وقوة ، وصدق وإخلاص، وكانوا خلفاء الرسول ﷺ في جميع أعماله إلا النبوة والوحي، وقاموا برئاسة الدولة وتبليغ الدعوة ، ونشر الإسلام ، وتوجيه الأمة ، وتعليم التابعين ومن دخل الإسلام بعد الفتوحات المظفرة ، وتفرق الصحابة في مختلف الأمصار لهذه الغايات ، وسلَّموا الأمانة إلى التابعين الذين وصل إليهم الإسلام صافياً نقياً كما نزل من السماء ، وقام التابعون بواجبهم خير قيام ، وشمروا عن ساعد الجد والنشاط ليخلفوا الصحابة في مهامهم ، وتولوا ريادة الأمة في السياسة والإرادة والحكم ، والجهاد والفتح ، والعلم والاجتهاد ، والدعوة والتبليغ ، وحفظوا القرآن والسنة الشريفة ،

كما حفظوا آراء الصحابة واجتهاداتهم ، ونَعِمَ التابعون بالخيرية التي شهد لهم بها رسول الله ﷺ في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري ومسلم وأصحاب السنن عن عمران بن حصين مرفوعاً: «خيرُ أمتي قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، قال عمران: فلا أدري أذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثة ، ثم يأتي من بعدهم قوم يشهدون ولا يُستشهدون ، ويخونون ولا يُؤتمنون ، ويَنْذِرون ولا يُوفون ، ويظهر فيهم السِّمَنُ»[1].

وأصبح التابعون حلقة الوصل بين الصحابة وبين أئمة المذاهب المعروفين في العالم الإسلامي اليوم ، الذين ظهروا في القرن الثاني للهجرة ، كما صار التابعون شيوخ الأمة ، أساتذة الأئمة ، وسادة القوم ، وأهل الحل والعقد ، وظهر فيهم العلماء والفقهاء ، والأئمة والمجتهدون ، والقضاة والمفتون.

ومن هؤلاء فقيه أهل الشام وعالمهم ، وأحد الأعلام ، أبو إدريس الخَوْلاني.

اسمه ونسبه:

اسمه عائذ الله بن عبد الله بن عَمْرو والخَوْلاني العَوْذي ، والخَوْلاني نسبة إلى خَوْلان قبيلة يمنية نزلت بالشام ، وخَوْلان هو أَفْكَلُ بن مالك ، وينتهي نسبه إلى سبأ ، ومنهم أبو مسلم الخَوْلانِي ، وأبو إدريس الخَوْلاني ، والعَوْذِي نسبة إلى عَوْذ بن سُودِ[2] ، وينتهي نسبه إلى عامر بن ماء السماء ، وهم بطن من الأَزْد التي تتصل بسبأ ، ويرجع إلى

---

(١) رواه البخاري (٢/ ٩٣٨ رقم ٢٥٠٨) ، ومسلم (١٦/ ٨٤) ، وأبو داود(٢/ ٥١٨) ، والترمذي (٦/ ٥٨٧) ، والنسائي (٧/ ١٧) ، والبيهقي (٣٠/ ١٦٠) ، وانظر: معالم السنن للخطابي ٢/ ٤٠٩ ، نيل الأوطار ٨/ ٣٠٧ ، سبل السلام ٤/ ١٢٦.

(٢) عجالة المبتدي ص١٠ ، ٥٦ ، لب الألباب في الأنساب ص٩٩ ، سنن أبي داود ٢/ ٢٦٠ ط قديمة ، كتاب السنة ، باب لزوم السنة.

الأَزْد جِمَاع الأنصار في المدينة ، وكان أنس بن مالك ، رضي الله عنه يفتخر بذلك فيقول: إن لم نكن من الأزد فلسنا من الناس ، وأثنىٰ عليهم رسول الله ﷺ فيما رواه الترمذي عن أنس مرفوعاً: «الأَزْد أسد الله في الأرض»[1] ، وفي حديث آخر: «الأَزْد جُرثومة العَرَب» وجُرْثُومة الشيء: أصله ، فأبو إدريس من أصل عربي خالص ، ويكنىٰ بأبي إدريس ، وعرف في كتب التاريخ والأعلام والتراجم بكنيته ونسبه: أبو إدريس الخَوْلانِي.

ولد أبو إدريس الخَوْلانِي عام حنين في حياة الرسول ﷺ عام ٨هـ/ ٦٣٠م ، ولا صحبة له ، فلم ير الرسول ﷺ ، ولم يلتق به في صغره ، وسكن أبو إدريس الشام ، وبقي فيها ، ومات بدمشق سنة ٨٠هـ/ ٧٠٠م ، لذلك ينسب أيضاً إلى دمشق والشام ، وهو تابعي ، بل من كبار التابعين ، وذكره ابن سعد في الطبقة الثانية من التابعين بالشام[2].

أساتذته وشيوخه:

تلقىٰ أبو إدريس الخَوْلانِي القرآن والحديث وعلوم الشريعة عن الصحابة وكبار التابعين ، فأخذ عن أبي الدرداء وجالسه ، وعن عبادة بن الصامت ، ومعاذ بن جبل ، وشدَّاد بن أوس ، وأبي ذر ، وعوف بن مالك ، وأبي ثعلبة ، وأبي هريرة ، وحذيفة ، وعبد الله بن حوالة ، وعن عمر بن الخطاب ومعاوية وأبيّ وبلال وغيرهم ، كما درس وحدث عن

---

(١) الفتح الكبير ١/٥٠٦.

(٢) طبقات ابن سعد ٧/٤٤٧ ، تذكرة الحفاظ ١/٥٦ ، الخلاصة ٢/٢٦ ، حلية الأولياء ٥/١٢٢ ، طبقات الفقهاء للشيرازي ص٧٤ ، مشاهير علماء الأمصار ص١١٢ ، المستطرف ١/١٣٧ ، مفتاح السعادة ٢/٥٩٥ ، يحيىٰ بن معين وكتابه التاريخ ٢/٢٩٠ ، الأعلام للزركلي ٤/٤ ، حلية الأولياء ٥/١٢٢ ، تاريخ التشريع الإسلامي ، السايس والسبكي والبربري ص١٩٨ ، تاريخ التشريع الإسلامي ، الخضري ص١٦١.

عدد من التابعين ، منهم أبو مسلم الخَوْلانِي ويزيد بن عَمِيْـرَة.

ونقل يحيىٰ بن معين أن أبا إدريس لم يروِ عن معاذ بن جبل ، وأنه قال: وفاتني معاذ بن جبل ، فحدثني عنه يزيد بن عَمِيرة ، لكنَّ الذهبي وغيره أكد رواية أبي إدريس عن معاذ ، وقال الحافظ ابن عبد البر: «سماعه منه صحيح».

واتفق العلماء على توثيق أبي إدريس ، وأن روايته صحيحة ، ولذلك خرَّج أحاديثَه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه وغيرهم.

ولم يقتصر أبو إدريس على رواية الأحاديث ، بل صار له ملكة فقهية ، وقدرة على فهم كتاب الله تعالى ، واستنباط الأحكام منه ، فكان عالماً فقيهاً ، قال الزهري: أبو إدريس كان من فقهاء الشام ، وقال سعيد بن عبد العزيز: كان عالم أهل الشام بعد أبي الدرداء ، وقال مكحول: ما علمت أعلم من أبي إدريس ، وذكره الشيرازي في «طبقات الفقهاء» وعدَّه أول فقهاء التابعين بالشام ، وقال الذهبي: «عالم أهل الشام عائذ الله بن عبد الله الدمشقي الفقيه ، أحد من جمع بين العلم والعمل»».

تـلامـذتــه:

تلقىٰ أبو إدريس الخَوْلانِي علوم الشريعة ليبلغها إلى غيره ، ويعطيها لتلامذته ، ويقوم بنشرها بين الناس ، ويعمم نفعها إلى الجميع ، فجلس للتعليم والتدريس ، وتخرج به كثير من فقهاء الشام وعلماء الأمة ، منهم الزهري ومكحول ، ويحيىٰ بن يحيىٰ الغساني وبشر بن عبيد ، وربيعة بن يزيد القصير ، ويونس بن ميسرة ، والوليد بن عبد الرحمن الجرشي ، وأبو حازم بن دينار والحسن البصري ومحمد بن سيرين ، وغيرهم.

عبادته وسيرته:

كان أبو إدريس الخَوْلانِي ذا سيرة حسنة ، وعبادة دائمة ، وصلة بالله تعالى مستمرة ، وكان شديد الخوف من الله عظيم الرجاء له ، كثير القراءة والتلاوة لكتاب الله تعالى ، لذلك وصفه الإمام أبو حاتم فقال: «وكان من عباد الشام وقرَّائهم» ، وكان أبو إدريس دائم التفكر في آلاء الله تعالى ، كثير الاعتبار والنظر في شؤون الكون والخلق ، وسماه أبو نُعيم «المعتبر النظار ، والمتفكر الذكار».

يقول أبو إدريس: «اللهم اجعل نظري عبراً ، وصمتي تفكراً ، ومنطقي ذكراً» ، ويقول أيضاً: «من جعل همومه هماً واحداً كفاه الله همومه ، ومن كان له في كل وادٍ همٌّ لم يبال الله في أيها هلك» ، وكان يحرص على العبادة في المساجد والجلوس فيها ، ويقول: «المساجد مجالس الكرام» ، ويقول: «ليعقبن الله الذين يمشون إلى المساجد في الظلم نوراً تاماً يوم القيامة» ويدعو إلى الجوهر الحقيقي للصلاة والعبادة ، وهو الخشوع ، وأن قلة الخشوع تنذر الأمة بالهلاك ، فيقول: «يرفع من هذه الأمة الخشوع حتىٰ لا ترىٰ خاشعاً» ، وكان يتدبر كتاب الله تعالى ، ويقرؤه بفهم ووعي ، وتمعن وفقه ، واستذكار واتعاظ ، ويقول: «إنما القرآن آية مبشرة ، وآية منذرة ، وآية فريضة ، أو قصص أو أخبار ، وآية تأمرك ، وآية تنهاك» ، ويقوم أبو إدريس بجميع هذه الأعمال والعبادات والطاعات مع الخوف من الله تعالى ، والرجاء أن يثيبه عليها ، وأن يثبت عليه الإيمان ، وأن يختم له بالإيمان ، ويحذر من ذلك فيقول: «ما على ظهرها من بشر ، لا يخاف على إيمانه أن يذهب ، إلا ذهب ، والله أعلم».

توليه القضاء:

لم يقف أبو إدريس الخَوْلانِي عند التعليم والتدريس فحسب ، بل كان

إيجابياً أكثر ، فشارك في الحياة العامة ، والوظائف الكبرىٰ ، والولايات الدينية المهمة ، ومارس علم القضاء الذي يعتبر من أجل العلوم قدراً ، وأعزها مكاناً ، وأشرفها مركزاً ، لأنه يحفظ الحقوق والأنفس ، ويبين الحلال والحرام ، وهو من وظائف الأنبياء والمرسلين ، فقال تعالى: ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [ص: ٢٦] ، واعتبر رسول الله ﷺ القضاء بالعدل من النعم التي يُباح الحسد عليها ، فروىٰ البخاري ومسلم وأحمد وابن ماجه والبيهقي عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً فسلطه الله على هلكته في الحق ، وآخر آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعمل بها»[1] ، كما يقدم القاضي خدمة جلىٰ للمجتمع والحياة والدولة ، لأنه يحقق العدل ويقيم القسط ، ويحفظ الحقوق ، ويمنع الظلم والطغيان ، ويقيم الحدود ، ويطبق الأحكام الشرعية التي أنزلها رب العالمين ، ويأخذ على يد الجناة والمجرمين ، ويعاقبهم على ما جنت أيديهم ، لزجرهم عن الأعمال المحرمة ، ومنع غيرهم من الإقدام عليها ، والقضاء ركن من أركان الدولة ، وجزء هام من مقومات المجتمع ، والقضاء أفضل مظهر يتمثل فيه العدل الذي جعله أرسطو قوام العالم ، وهو أساس الملك ، وأقوىٰ دعامة لاستتباب الأمن ، واستقرار الحكم ورقي المجتمع وتقدم الأمة ، وخاصة إذا حكم القاضي بشريعة السماء ، وتمثل الآداب الإسلامية التي رسمها الرسول الكريم ، وسار عليها السلف الصالح ، والتزمها القضاة المسلمون ، فصاروا مثلاً أعلى للقضاة في العالم.

---

(١) رواه البخاري (١/ ٣٩) ، ومسلم (٦/ ٩٧) ، وأحمد (١/ ٣٨٥ ، ٤٣٢ ، ٢/ ٣٦ ، ٨٨ ، ١٥٢ ، ٤٥٩) ، وابن ماجه (٢/ ١٤٠٨) ، والبيهقي (٤/ ١٨٨) ، وانظر: الفتح الكبير ٣/ ٣٤٣ ، وأخبار القضاة لوكيع (١/ ٣٧).

كما أن القضـاء مهمـة صعبـة ، ومنصب خطيـر ، لذلك يتـهيب منـه الرجال ، ويتورع عنه العظماء ، خشية أن يفتنوا به ، ويقعوا في أوضاره ومثالبه.

وقد تولىٰ أبو إدريس الخَوْلانِي قضاء دمشق من قبل عبد الملك بن مروان[1] ، وكان من قضاة العدل والاستقامة ، وأقره عبد الملك على القضاء حتىٰ آخر عمره ، مع رهبته من القضاء ورغبته في تركه والتخلي عنه ، وهو الراوي عن أبي ذرٍّ الحديث القدسي الصحيح : «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا»[2].

قيـامـه بـالـوعـظ :

الأصل في الوعظ أنه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والنصيحة لله ولرسوله وكتابه وأئمة المسلمين وعامتهم ، والوعظ واجب إسلامي عظيم ، وخاصة على الأئمة والعلماء ، ليرشدوا الناس إلى الخير ، ويحذروهم من الغي والشر ، والضلال والفساد ، ويعلموهم سبل البر ، ويرغبوهم بالعمل الصالح ، ويزجروهم عن منافذ الشيطان ومكائده.

واتفق علماء التاريخ والتراجم أن أبا إدريس الخَوْلانِي كان واعظ دمشق وقاصَّها ، وكان حكيماً في موعظته ، مُؤثراً في إرشاده ، بليغاً في كلامه ، فصيحاً في عباراته ، لكن الخليفة عبد الملك عزل أبا إدريس عن

---

(١) تولىٰ أبو إدريس القضاء بعد عزل بلال بن أبي رباح (تاريخ التشريع الإسلامي ، السايس ص١٩٨) ، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه عيَّن أبا إدريس الخَوْلانِي في قضاء المظالم (مقدمة ابن خلدون ص٢٢٢ ، تاريخ القضاء في الإسلام ، ص ٩٧ ، ١٤٢ ، ١٩٩).

(٢) هذا طرف من حديث رواه مسلم (١٦/ ١٣٢) ، وأحمد (٥/ ١٦٠) ، وابن حبان ، والحاكم ، وأبو عوانة عن أبي ذر رضي الله عنه مرفوعاً: (الأربعين النووية للحديث ٢٤ ص٥٩ ، الإتحافات السنية في الأحاديث القدسية ص٤١).

القصص ، وأقرَّه على القضاء ، فقال أبو إدريس: عزلوني عن رغبتي ، وتركوني في رهبتي[1].

والسبب في ذلك ملاحقة الخلفاء والحكام للقصَّاص والقصَّاصين ، ومنعهم من ذلك في المساجد وغيرها ، لأنه مهنة محدثة في عهد التابعين ، ولم تعرف في عهد الصحابة ، وكان ظهورها في أول الأمر طيباً ، وغايتها نبيلة ، ولأنها باب من أبواب الوعظ ، يعتمد فيه الواعظ على ما يُناسب طباع العوام والناس عامة من الإنصات للقصص والحكايات ، فلجؤوا إلى حكايات الأمم ، وقصص التاريخ التي تحمل على الأعمال المرضية ، والأخلاق المشكورة ، وتحث على تكميل النفوس بالعلم والعمل ، وتهذيب السلوك لما يرضي الله تعالى ، وبدأت من الأحاديث المروية إلى القصص التاريخية ثم انتقلت إلى الأخبار الإسرائيلية ، والروايات المكذوبة ، والقصص المنحولة ، والسخافات والأوهام ، ولعب الخيال أثره بها ، وسمح القاص لنفسه بالكذب واختلاق الأحدوثة في سبيل الغاية النبيلة التي يقصدها ، ويأتي بحكايات عن الأشرار والمبتلين ، ليبين سوء أفعالهم ، ويحذر من أخلاقهم ، لأن الأخيار يتأدبون بصنيع الأشرار[2].

ولم يكن أبو إدريس الخَوْلانِي من هذا الطراز من القصاص ، بل كان واعظاً مسلماً ، وفقيهاً تقياً ، بل كان يحذر من القاص الجاهل ، ويقول: «لأن أرى في طائفة المسجد ناراً تقد أحب إليَّ من أن أرىٰ فيها رجلاً يقص ليس بفقيه» وكان يجانب البدع ويحذر منها ويخاف على الأمة منها ، فيقول: «لأن أرىٰ في جانب المسجد ناراً لا أستطيع إطفاءها ، أحب إليَّ

---

(١) انظر قصصه في (المستطرف ١/ ١٣٧ ، مفتاح السعادة ٢/ ٥٩٥).

(٢) كان أبو إدريس شديد المحبة لإخوته في الله ، وله قصة طريفة ، مع معاذ بن جبل ، رضي الله عنه (حلية الأولياء ٥/ ١٢٧).

من أن أرىٰ فيه بدعة لا أستطيع تغييرها» ، ومن مواعظه وحكمه قوله: «قلب نقي في ثياب دنسة ، خير من قلب دنس في ثياب نقية» ، وقال ابن عمر رضي الله عنهما: لم يقص أحد على عهد رسول الله ﷺ ولا عهد أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم ، وإنما كانت القصص حين كانت الفتنة ، ولذلك منع الخلفاء والحكام القصاصين ، لما وصلوا إليه ، ولأن الغاية لا تبرر الوسيلة ، والفساد لا يُؤدي إلى صلاح ، والشر لا ينتج إلا شراً ، وهذه الأمور بعيدة عن الإمام العابد ، القارىء الفقيه ، الحافظ المحدث ، الذي يتصف بالضبط والثقة والعدالة ، القاضي أبي إدريس الخَوْلانِي ، فرحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جنانه ، ووفقنا الله للاستفادة من علمه ، والاقتداء بسيرته ، والحمد لله رب العالمين.